الفصل الرابع والعشرون

بوتينغراد

في فبراير/شباط 2013م، اجتمع بوتين بوفد كبير من المسؤولين الروس وأعضاء اللجنة الأولمبية الدولية في سوتشي مدة يومين قبل سنة تمامًا من حفل الافتتاح المقرر، ولم يكن يظهر عليه أنه سعيد.

خمس سنوات من البناء حوَّلت المنتجع الساحلي الناعس إلى حالة أفضل كما يرى مساعدو بوتين، وإلى دمار كما يرى منتقدوه؛ فالموقع الدائري للحلبات الأولمبية الرئيسة في وادي إيميريتنسكايا جُفِّف ودرِّج، ونظِّف من مئات المنازل المتواضعة والبيوت التي بُنيت على مصبات الأنهار لتعشش فيها الطيور المهاجرة. ارتفعت الحلبات من السهل كما لو أنها أجسام غريبة أنيقة وحديثة بالمقارنة ببقايا الكلاسيكية الجديدة من الماضي السوفييتي المجيد لسوتشي.

وقد ظهرت في الوادي عدة ندوب، من تناثر مخلفات البناء، ورافعات البناء التي تدور ليلًا ونهارًا. وتكاثف البناء على نحو متساو على الجبال في كراسنايا بوليانا، حيث زحف نهر مزيمتا المعكَّر إلى السكك الحديدية والطرق السريعة غير المكتملة. كان حجم العمل في الجبال وعلى طول الشريط الساحلي الضيق لسوتشي مذهلًا: مئتا ميل من الطرق الجديدة، وعشرات الأنفاق والجسور، وثماني محطات للسكك الحديدية الجديدة، وواحد وثلاثون موقفًا أصغر، ومحطة توليد كهرباء جديدة بنتها غازبروم، وشبكة من محطات فرعية أصغر،

ومطار وميناء بحري جديدان، بناهما أوليغ ديريباسكا، رجل الأعمال الذي وبَّخه بوتين في بيكاليفو في عام 2009م، وعشرات الفنادق الجديدة، والمدارس والعيادات؛ كان في ذلك الوقت أكبر مشروع بناء على هذا الكوكب. وهذا العمل الذي تنفذه روسيا لا يقارن إلا بذلك الذي نفِّذ لإعادة إعمار المدن التي دمرتها الحرب الوطنية العظمى.

وطلب أناتولي باخوموف، رئيس بلدية سوتشي، بإنشاء مشروع عملاق لحفر نفق يربط الطريق الالتفافي السريع الثاني للتخفيف من أزمة السير الخانقة في المدينة، وهو ما كان اقترحه ستالين قبل أكثر من نصف قرن، لكن اليوم فقط، في عهد بوتين، آن له أن يتحقق. قارن فلاديمير ياكونين، الصديق القديم لبوتين، مشروع السكك الحديدية، الذي بلغت كلفته ما يقارب 10 مليارات دولار، بمشروع أقدم منه لتوحيد الدولة: السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، الذي بني في فجر الإمبراطورية الروسية من قِبل القيصر ألكسندر الثالث وابنه نيقولا الثاني[1].

كان بوتين منذ البداية متحمسًا بقوة لهذا المشروع الأولمبي، فقد منح العقود (في كثير من الأحيان دون مناقصة)، وصادق على المخططات، وضبط مواعيد البناء، وكان يزور سوتشي على نحو متكرر، سواء في الزيارات الرسمية أو الخاصة التي يقصد بها بيته الريفي في بوشاروف روشيا، أو إلى بيته الجديد الذي بنته غازبروم في الجبال. أكثر من أي مشروع عملاق آخر، كانت سوتشي ترمز إلى الثروة المتزايدة في البلاد ومكانتها الدولية، وانتصارها على الإرهاب والانفصال في شمال القفقاز المضطرب، الذي من فوق تلاله الجبلية هناك ستنطلق المباريات.

كانت لدورة الألعاب الأولمبية بالنسبة إلى بوتين هدف يتجاوز حدود السياسة، وأعرب عن اعتقاده بأن تكون المسكِّن لهذا البلد الذي عانى كثيرًا خلال العقود السابقة، وقد قال ذات مرة لمجموعة من الصحفيين الأجانب: «بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وبعد الظلام، وبعدَ- دعونا نكون صادقين- الأحداثِ الدامية في القفقاز، أصبح الموقف العام في روسيا

سلبيًّا للغاية ويدعو إلى التشاؤم، علينا أن نتصرف جميعًا بهدوء، وندرك أننا نستطيع أن ننجز مشاريع على نطاق واسع، وفي الوقت المحدد، وبجودة عالية، لا أقصد بالمشاريع فقط الدفاع القوي المحتمل، وإنما أيضًا التطور في المجال الإنساني، ومن ضمنه تحقيق إنجازات كبرى في الرياضة». وتحدث عن (الألعاب الأولمبية)، قائلًا إنها سترفع من «معنويات الأمة».

حتى نقاد بوتين اعترفوا بأهمية هذا المسعى، وإن لم يتفقوا معه كاملًا؛ فقسطنطين ريمتشكوف، الناشر ورئيس تحرير صحيفة **نيزافيسيمايا غازيتا المستقلة**، قارن إعمار سوتشي ببناء سان بطرسبورغ القيصرية في القرن الثامن عشر من قبل بيتر الرهيب، لا لكي تحل محل موسكو عاصمة للبلاد، وإنما لخروج البلاد من حالة التخلف؛ قال: «لقد تعلمنا في المدرسة كيف بنيت المدينة على العظام، وكم الذين تمتموا وهم يلتقطون أنفاسهم، وكم الذين كان عليهم أن يحلقوا لحاهم، وكم حزنت موسكو لأن بطرسبورغ أنشئت في مكان متعفن ومليء بالمستنقعات»، وأضاف: «هنا، بالنسبة إلى بوتين، بطرسبورغ تخصه. انظروا كيف بنى سوتشي في كراسنودار! ستمر خمسون عامًا أو ستون- لا أدري- حتى يسموها بعد ذلك بوتينغراد»[2].

كما هو حال الصناعات الإستراتيجية في البلاد، فقد وجَّه بوتين المشاريع الكبرى إلى الناس الذين يثق بهم أو يسيطر عليهم ليجعلهم أكثر ثراء، ولن يتسامح مع أية معارضة، وأي تأخير؛ حتى إنه بعد أن غادر الصحفيون وبخ منسوبيه المجتمعين خلال جولة تفقدية غير متاحة للتصوير في عام 2012م، قائلًا: «سأخبركم عن الإخفاقات التي ستنتج من عدم التزامكم بالمواعيد النهائية. لا أريد أن أُخيف أحدًا، لكن سأتحدث معكم لأنكم الناس الذين عرفتهم منذ سنوات عديدة».

كان البناء لا يزال يعاني من التأخير والكوارث، والفضيحة: تجاوزات في التكاليف، والحوادث، والسرقة، والفساد، وسوء المعاملة. في عام 2009م دمرت عاصفة شتوية قوية ميناء الشحن الذي أشيد لتفريغ مواد البناء، إضافة إلى آلاف الأمتار من الأسوار المانعة

التي تحيط بالموقع، ومن ثم فقد ترتب على بوتين أن يفصل ثلاثة مديرين على التوالي من الشركة المقاولة الرئيسة أوليمبستوروي قبل أن يعلق عمل الرابع.

تدفق عشرات الآلاف من العمال الوافدين الذين يتقاضون أجورًا زهيدة من مولدافيا وأوكرانيا وآسيا الوسطى، وهو ما أثار استياء الروس في المنطقة، وقد أسيء معاملة كثيرين منهم بفظاعة، إذ كانوا يتقاضون مبالغ ضئيلة، وتُسلب بعض أجورهم، ويُرحَّلون إلى بلدانهم، فضلًا عن موت العشرات في الحوادث[3].

بوتين يريد أولمبيادًا تكون رمزًا لروسيا وقد كانت. وكان كل مشروع ابتلي بالفساد يزيد التكاليف إلى أرقام خيالية بحيث أصبح من الصعب تجاهلها، أو إخفاؤها. في عام 2013م، وفي وقت مبكر، وجِّهت تهمة لديمتري كوزاك في سوتشي، وهو المساعد المقرب لبوتين، ويشغل اليوم نائب رئيس الوزراء، انزلقت تلك التهمة إلى تصريحات علنية بأن تكلفة تجهيز سوتشي ارتفع من 12 مليار دولار التي وعد بها بوتين اللجنة الأولمبية الدولية إلى 51 مليار دولار، وهو رقم مذهل؛ فكانت الألعابَ الأولمبية الأكثر نفقة على الإطلاق، فهي أكثر من سبعة أضعاف المبلغ الذي أنفقته فانكوفر لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في عام 2010م، وأكثر مما صرفته بكين لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الصيفية، وهي أكبر من ذلك بكثير، في عام 2008م. كان الرقم له حساسيته من الناحية السياسية في بلد فيه الاقتصاد لا يزال في حالة صراع، حتى إن أوامرَ صدرت لكوزاك ووزراء آخرين بعدم ذكر هذا الرقم مرة أخرى. هذا التبذير أثار السخط؛ فقد قدرت النسخة الروسية من مجلة إسكواير (الكياسة) أن ما أنفق على مهندسي الجبال الذين تولوا شق الطريق السريع المشترك والسكك الحديدية يمكن أن يعبد الطريق بسنتيمتر من الكافيار الأسود، وست سنتيمترات من الترفلز الأسود، وباثنين وعشرين سنتيمترًا من كبد الإوز، من بين غيرها من الكماليات[4].

عزا المسؤولون المعنيون ارتفاع النفقات الهائل إلى الظروف الجيولوجية الصعبة، أو مطالب اللجنة الأولمبية الدولية، لكن عمليًّا كانت نفقة كل مشروع أكثر بكثير من نفقة

المشاريع المماثلة التي بنيت في أماكن أخرى، وصدرت تقارير واسعة الانتشار بأن المقاولين ضخموا أسعارهم على كل صعيد لدفع رشا لمسؤولين، بحسب ادعاء فاليري موروزوف في عام 2010م، وخط الأنابيب الذي نفذته شركة أركادي روتنبرغ تحت البحر الأسود لتزويد الألعاب بالطاقة كلَّف أكثر من 5 ملايين دولار للكيلومتر الواحد، مقارنة بـ 4 ملايين دولار لخط أنابيب نورد ستريم في بحر البلطيق (الذي تزيد تكلفته مرات عديدة على متوسط الكلف الأوروبية)[5].

أطلق بوريس نيمتسوف على سوتشي اسم (مهرجان الفساد)، في يونيو/حزيران 2013 في أحدث تقرير له حول الفساد في عهد بوتين، مقدرًا قيمة الهدر بنصف الـ 51 مليار دولار، أو أن هذا النصف قد سرِق. واعترف مسؤولون روس أن مبالغ هائلة قد فُقدت، فقد أشار ديوان التدقيق في تقاريره إلى أن ما قيمته 500 مليون دولار أنفِقت ولا يُعرف مصيرها، وقد أخفى الديوان تقاريره الربعيَّة على الفور، وعدَّها من أسرار الدولة، ولم توجه أية تهمة جنائية بتاتًا، وبالتأكيد ليست ضد أي من حلفاء بوتين، الذين أصبحوا من كبار الأثرياء من الأولمبياد.

إن ارتفاع النفقات، وفرضية سرقة جزء كبير من الأموال، جعلت كثيرين يشككون في جدوى انعقاد دورة الألعاب الأولمبية. كان رد الفعل عنيفًا من قبل عدد من المدن المضيفة ذات الخبرة، لكن في روسيا كانت تأتي النفقات في وقت مشؤوم؛ فما زال الاقتصاد الروسي يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الموارد الطبيعية، وبعد أن خرج من أسوأ ما في الأزمة الاقتصادية، توقف مرة أخرى؛ فقد تباطأ النمو من 3 في المئة عام 2012م إلى أكثر بقليل من 1 في المئة في عام 2013، والطفرة الاستهلاكية التي غذتها أسعار النفط لم تترجم إلى خدمات حكومية أفضل.

انخفضت شعبية بوتين- وهو قياس لا يمكن اعتماده بدقة بسبب سيطرة الدولة على وسائل الإعلام- في عام 2013 إلى أدنى مستوى يسجله منذ أن أصبح رئيسًا لأول مرة في عام

2000م، ووفقًا لتقرير إحدى الوكالات فقد ارتفعت شعبية بوتين في الشهر الذي تلا الحرب في جورجيا، حتى وصلت إلى 88 بالمئة، لكن بدأت تتعثر اليوم لتنخفض إلى 60 بالمئة[6]. وقليل ممن استطلعت آراؤهم موافقون على توجهات البلاد، أو على سياسات الرئيس، وبالتأكيد ليسوا موافقين على البيروقراطية الجشعة وغير الفعالة التي يبدو أنها عصيَّة حتى المراسيم بل وعلى بوتين.

في ذلك اليوم من شهر فبراير/شباط، وعلى سفوح كراسنايا بوليانا، كان بوتين يغلي من الإحباط في أحدث جولة تفقدية له في الأماكن التي تصارع لتكون جاهزة في الموعد المحدد. وفي هذه الجولات- كما قال رئيس بلدية باخوموف- كان بوتين نادرًا ما يثني على ما أنجز من أعمال؛ كان الناظر الذي وضع التوقعات ثم غضب لعدم الوفاء بها. تحدث باخوموف عن هذه اللقاءات بشيء من الرعب من قوة إرادة بوتين، فقد أصبح بوتين عازمًا اليوم على إبداء مشهد عام لاستيائه؛ فارتدى معطفًا أسود، ووقف وسط مجموعة من كبار مساعديه في مركز التزلج الذي أنجز حديثًا. وكان رئيس اللجنة المنظمة لسوتشي، ديمتري شيرني شينكو، يشرح ترتيبات الجلوس عندما حوَّل بوتين الكلام إلى مرفق آخر على نحو غير متوقع، وهو القفز على الثلج، الذي كاد يكون أسوأ سمعة من بين المرافق الأخرى التي تعرضت للهدر والتأخير.

أشرف أحمد بلالوف على المشروع الذي يطلق عليه غورنايا كاروسيل (جبل الكاروسيل)، وهو نائب رئيس اللجنة الأولمبية الروسية الذي يمتلك الأرض التي يقع عليها المشروع، وله أسهم في الشركة المتعاقَد معها لتنفيذ البناء، وقد باع الأسهم جميعها لأخيه. كان بلالوف رجل أعمال من داغستان وعمل في مجلس الدوما، وكان مقربًا من ديمتري ميدفيديف وفريقه الاستشاري، وعيِّن في اللجنة الأولمبية خلال رئاسة ميدفيديف، إضافة إلى المشروع الذي كان يأمل ميدفيديف أن يعيد تطوير منطقة شمال القفقاز من خلال بناء سلسلة من منتجعات التزلج على الجليد، وبناء منتجع في الشيشان، بوصفه وسيلة لترويض

آخر فلول التمرد في المنطقة؛ بإيجاد فرص اقتصادية لهم. تعرقل مشروع القفز على الثلج لسوء الموقع، وضبابية التصميم، وتقنيات البناء التي- بحسب دعاة البيئة- تسببت في انزلاق الأراضي في عام 2012م وطمرت كامل الموقع تقريبًا. الجدران الاستنادية الجديدة التي تُبْنى كانت مكلفة، فضلًا عن كلفة الطريق المؤدي إلى الموقع الذي لم يلحظ في العقد الأصلي. ميزانية المشروع التي بدأت بـ 40 مليون دولار تضخمت إلى أكثر من 260 مليون دولار، وعلى الرغم من أنه لم يبق إلى عام واحد لانطلاق الألعاب، فلا يزال الموقع موحلًا، ولم يتم الانتهاء من البناء، وقد تناثرت فيه المواد والركام.

أعضاء الوفد المرافق لبوتين بدا عليهم عدم الارتياح، وبدا أن تشيرنيشينكو لا يعرف كيف سيردُّ على استفسارات بوتين عن التأخير. تفرَّس بوتين الرجال من حوله، حتى تقدم ديمتري كوزاك إلى الأمام للشرح، من خلال استجواب بوتين له تبين أن المشروع متأخر عامين عن موعده المحدد، فطلب بوتين أن يعرف من المسؤول، وأجاب كوزاك: «الرفيق بلالوف»، في حين هرع الوفد المرافق بعصبية للالتفاف حوله، «وماذا يفعل كل هذه الأيام؟»، تلعثم كوزاك، وادعى أنه لم يكن يعلم.

التفت بوتين وحدَّق في الآخرين، فقال أحدهم إنه يدير اليوم شركة شمال القفقاز للمنتجعات، وعضو أيضًا في اللجنة الأولمبية الروسية، التي على رأسها ألكسندر جوكوف، الذي يقف أيضًا بينهم.

سأله: «إذًا هو نائبك، أليس كذلك؟»، كان جوكوف يهز برأسه فقط في حين يضغط عليه بوتين بلا هوادة. «وهل نائب رئيس اللجنة الأولمبية في البلاد يشارك في هذا النوع من البناء؟».

تدخل أحدهم من الخلف قائلًا: «يملك شركة بناء من نوع ما»، فالتفت بوتين مرة أخرى إلى كوزاك، حتى بدا كأنه شاهد متردد أمام المدعي العام.

سأل بوتين كوزاك: «هل هناك زيادات في نفقات بناء المنشأة؟».

طأطأ رأسه، وكان على ما يبدو غير مستعد لهذا الاستجواب، أو ربما مجرد حالة عصبية ألمت به، ثم فصَّل النفقات عمومًا ومصادر التمويل، فألح بوتين على الأرقام الدقيقة، وعندما قدمها كوزاك كررها بوتين بقرف.

«حسنًا فعلتم يا شباب!»، قالها بسخرية باردة جدًّا، وهذا بلا ريب سيأخذ مكانًا بارزًا في التلفاز الحكومي. «دعونا نتحرك»، والتفت وتابع سيره.

في اليوم التالي بناء على أوامر بوتين أقيل بلالوف من جميع مناصبه، وبدأ سلسلة من التحقيقات في عمله في منتجعات شمال القفقاز، ومن ضمنها نفقاته الضخمة في السفر إلى دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في لندن في عام 2012م. هرب بلالوف وشقيقه ماغومد بسرعة من البلاد، وظهر مدة قصيرة في أبريل/نيسان في عيادة في مدينة بادن الألمانية، حيث قال إن مستويات الزئبق مرتفعة في دمه، ويشتبه أنه سُمم عمدًا، وقد زعم الأطباء في وقت لاحق أن السم في جسده هو الزرنيخ والموليبدينوم[7]. انتقل الشقيقان بعد ذلك إلى لندن، في حين عهد بوتين بمهمة استكمال منشأة القفز على الثلج إلى سبيربنك، برئاسة جيرمان جريف.

بوتين عرف جريف منذ التسعينيات، وعلى الرغم من انتقاداته غير المباشرة والمتقطعة لسياسات بوتين (مثل الإدلاء بشهادته في محاكمة خودوركوفسكي، على سبيل المثال)، فإن بوتين كان يثق بأنه سينجز المهمة الموكلة إليه.

لم يكن مشروع القفز على الثلج هو المشروع الوحيد الذي تأخر تنفيذه وزاد عن الميزانية المرصودة له، وقد شكك بعضهم في أن بوتين ركز على هذا المشروع خاصة لأن أصحابه كانوا مرتبطين بفريق ميدفيديف، ومن ثم فقد كانت القدرة على الإنفاق متوافرة[8]، ورأى آخرون أن ذلك هو دليل انقضاض بوتين على الفساد الذي يلتهم روسيا، أو على الأقل كَشفه، لينهي الانتقادات المتزايدة للمشروع الأولمبي، غير أن العدالة تبقى انتقائية؛ فلم تكن هناك أية ملاحقات قضائية ذات معنى، حتى في حالة بلالوف؛ فقد استشرى الفساد وأصبح ذا

طابع مؤسسي، وهذا ما جعل منه أداة للاختيار والإكراه. أي شخص يمكن أن يحاكم عند الضرورة، لأن الجميع متواطئون تقريبًا، وحتى لو أنهم ليسوا كذلك فيمكن أن توجه لهم التهم بأي حال من الأحوال؛ فخطر الفساد حام على رؤوس الجميع، ومن ثم روَّض الجميع.

في قضية بلالوف كان قلق بوتين على حلمه الأولمبي أقل من اهتمامه بمواجهة الفساد، ومن ثم أرسل تحذيرًا عامًّا إلى أولئك المشاركين في الحلم بوجوب الانتهاء في الوقت المحدد. عندما زار مركز القفز على الثلج مرة أخرى في ديسمبر/كانون الأول، وهذه المرة كان جريف ضمن الحضور، كان قد انتهى، على الرغم من أنه كان- في نهاية المطاف- بخسارة كبيرة لسبربينك وبحدها الأدنى[9].

في 23 يونيو/حزيران 2013م هبطت طائرة الإيرفلوت في مطار موسكو قادمة من هونج كونج، تحمل ما يمكن أن يحمل بوتين على أن يقول ساخرًا: «يا لها من هدية لنا بعيد الميلاد!»، على متن الطائرة كان إدوارد سنودن، المقاول الشاب المصاب بخيبة أمل كبيرة؛ المقاول في وكالة الأمن القومي الذي سلَّم صحيفة **الجارديان والواشنطن بوست** عشرات الآلاف من الوثائق السرية للغاية، التي تشرح بالتفصيل المراقبة الأمريكية الواسعة للهواتف وشبكات الحواسيب، وغالبًا بالتعاون مع حلفائها في كندا، وبريطانيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، ومن ثم كان مطلوبًا من قبل الولايات المتحدة بتهمة التجسس بعد الفضائح التي عرضها.

تسلل سنودن من هونج كونج بعد لقاء مع المسؤولين في القنصلية الروسية هناك، يصحبه محام لموقع ويكيليكس، وكان يأمل في تغيير الطائرة في موسكو ليتابع إلى كوبا، ولكن وزارة الخارجية سحبت جواز سفره في محاولة لقطع رحلته، وكانت لهذه الخطوة نتائج عكسية عندما غض الصينيون النظر عن ترحيله إلى موسكو. لدى وصوله إلى مطار شيريميتيفو تقطعت به السبل، وأصبح بلا أوراق رسمية، ونتيجة لذلك أمضى الأسابيع الخمسة المقبلة في فراغ دبلوماسي، وتحت المراقبة المباشرة من قبل جهاز الأمن الفيدرالي.

في واشنطن، ذعر المسؤولون، وطلبوا من روسيا وضعه على متن طائرة للولايات المتحدة، كانوا قلقين من الخطر الداهم الناتج عن تقاسم كل ما يعرفه سنودن مع الروس، وبدا بوتين متلذذًا بنكهة اغتنام الفرصة غير المتوقعة لإدانة الأمريكيين. أعلن بوتين أن سنودن لم يرتكب أية جريمة على الأراضي الروسية، وذلك خلال زيارة له إلى فنلندا بعد ذلك بيومين، معترفًا بوجود سنودن في صالة الانتظار في المطار. وقال: كان سنودن من المدافعين عن حقوق الإنسان، ومن الذين «ناضلوا من أجل حرية المعلومات، اسأل نفسك: أتحتاج إلى وضع هؤلاء الأشخاص في السجن أم لا؟»، وقال إنه لا يريد المتاعب لنفسه كثيرًا بتفاصيل قضية سنودن، وتركها لمدير جهاز الأمن الفيدرالي، ألكسندر بورتنيكوف، الزميل القديم الذي التحق في العام نفسه الذي التحق فيه بوتين في الـ(كي جي بي) في لينينجراد في عام 1975م. «على أي حال، أنا شخصيًّا أفضل عدم الخوض في مثل هذه الأمور، لأنه كمن يجز شعر خنزير صغير: كثير من الصراخ وقليل من الشعر».

بعد سنوات من تلقيه الانتقادات من الولايات المتحدة بسبب سجله في مجال الحقوق، كانت السخرية لطيفة. أشادت وسائل الإعلام الروسية بسنودن بصفته بطلًا، وقارنته بأندريه ساخاروف، فقد كانت اعترافاته ضد الولايات المتحدة فيها من النبل كما اعترافات ساخاروف ضد الاتحاد السوفييتي. أمضى ثلاثة أسابيع منسيًّا في منطقة ترانزيت محددة، وقد سمح الكرملين له بمنبر للقاء المحامين وقيادات منظمات حقوق الإنسان، ومن بينهم ثلاثة من هيومن رايتس ووتش، ومنظمة العفو الدولية، ومنظمة الشفافية الدولية، الذين هاجم المحققون الروس مكاتبهم في جزء من مطاردة (العملاء الأجانب).

قرأ سنودن بيانًا مكتوبًا قائلًا إنه سيسعى إلى الحصول على اللجوء السياسي بدلًا من العودة إلى بلد ينتهك قوانينه بنفسه، قال: «قبل أكثر من شهر تقريبًا كان لدي عائلة، ومنزل في الجنة؛ عشت في راحة كبيرة، وكان لدي القدرة- من دون أي مذكرة بحث أو استيلاء- أن أقرأ اتصالات أي شخص ومتى أشاء، تلك هي القدرة على تغيير مصائر الناس»[10].

كانت ملحمة أوديسة سنودن انقلابًا دبلوماسيًّا واستخباراتيًّا بالنسبة إلى بوتين، على الرغم من أن مدى تعاون سنودن مع وكالات الاستخبارات الروسية ظل مجهولًا، وكان متنازعًا عليه من قبل أنصاره، فإن FSB كانت تراقب من كثب هذه (الهدية) غير المتوقعة. «هو في الواقع محاط من قبل هؤلاء الناس»، قال أندريه سولداتوف، الصحفي الذي كتب كثيرًا عن وكالات الاستخبارات الروسية، واشتكى في وقت لاحق أن سنودن لم يستطع أو لا يريد أن يلتقي الصحفيين الروس المستقلين مثله[11].

قضية سنودن أكدت شكوى بوتين من الهيمنة والخيانة الأمريكية، ونفاق الإدارات الأمريكية الثلاث التي تعامل معها. ما كشف عنه سنودن شوه سمعة الرئيس أوباما، وانتقص من سياسته الخارجية، ووتر العلاقات حتى مع حلفاء له مثل ألمانيا، عندما علمت المستشارة أنجيلا ميركل أن المحادثات الهاتفية الخاصة بها سُجِّلت، وخففت أيضًا من تقارير الصحفيين، مثل سولداتوف وزوجته إيرينا بوروغان، حول المراقبة الروسية الواسعة لمواطنيها من خلال برنامج يسمى SORM، أو نظام التدابير التحقيقية الفعالة؛ فقد وصفوا SORM بـ«شبكة جورج أورويل التي تنتهك الخصوصية والقدرة على استخدام الاتصالات لمعارضة الحكومة»[12].

وسَّع الجهد من وصول أجهزة المخابرات إلى ما هو أعمق بعيدًا في الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام، التي كانت حتى وقت قريب خالية من التدخل الحكومي، وتضاعف عدد الاعتراضات منذ عام 2007م، والتجسس على اتصالات زعماء المعارضة مثل بوريس نيمتسوف وألكسي نافالني، وتسريبها لوكالات الأنباء والمنظمات الصديقة للكرملين؛ فنظرًا إلى إفصاحات سنودن، كيف للولايات المتحدة أن تعترض على حالة المراقبة المتنامية لدى روسيا؟

1. بات من المؤكد أن إدارة الهجرة في روسيا قد منحت حق اللجوء المؤقت لسنودن في أغسطس/آب، وبموافقة بوتين، وبهذا يصرح له بالعيش، وحتى العمل في البلد؛ فخرج

سنودن من بوابة الترانزيت، وبدأ حياة جديدة في ظلال موسكو. وكان هذا القرار الذي علم به البيت الأبيض من وسائل الإعلام قد دق المسمار الأخير في (إعادة ضبط) العلاقات التي تابعها أوباما مع ميدفيديف، والتي اندثرت منذ عودة بوتين إلى الرئاسة.

بعد أسبوع ألغى أوباما خططًا لعقد اجتماع منفصل مع بوتين قبل انعقاد قمة العشرين G20 التي كان من المقرر عقدها في بطرسبورغ في سبتمبر/أيلول، فقد ازداد إحباط أوباما من بوتين، وأعلن في مؤتمر صحفي أنه لا جدوى من لقاء بوتين اليوم لبحث خلافاتهما بشأن السياسات ووجهات النظر العالمية؛ من النزاعات حول الدفاع الصاروخي، وحول الاضطرابات في الشرق الأوسط، والحملة على المعارضة في روسيا، وحظر التبني الأمريكي، وتمرير قانون جديد يمنع توزيع (دعاية مثليي الجنس) على الأطفال، فضلًا عن تصاعد الموجة المضادة لأمريكا في التلفاز الرسمي وفي التصريحات الرسمية. وصف أوباما بوتين بالمتجهم والمتغطرس، وهذا التهكم أغضب بوتين، بحسب أحد مساعديه. قال أوباما: «لقد أصابه هذا النوع من السأم، كان كما لو أنه طفل ملول في المقاعد الخلفية للصف الدراسي». كان مساعدو أوباما قد أقنعوا أنفسهم بأن بوتين يتوق للاحترام الذي تستلزمه تلك الاجتماعات بين زعيمين دوليين، لكن بوتين لم يهتم بالقدر الذي كانوا يفترضونه، وأعلن المتحدث باسم بوتين، ديمتري بيسكوف: «لا يمكنك أن ترقص التانغو وحدك»[13].

في غضون أسابيع، أثبتت الأحداث في سوريا أن بيسكوف على حق؛ ففي أغسطس/آب انهال وابل من الصواريخ المحملة بغاز الأعصاب على إحدى ضواحي العاصمة السورية دمشق، وهو ما أسفر عن مقتل 1400 شخص، وكان أوباما قد حذر قبل عامين من أن استخدام الأسلحة الكيميائية من قبل الحكومة السورية سيعد تجاوزًا للـ(خط الأحمر)، ويمكن أن يدفع لرد عسكري أمريكي، وخلال أسبوع وضعت وزارة الدفاع الأمريكية خططًا لضربة صاروخية انتقامية ضد الجيش السوري. لم يقل بوتين شيئًا علنًا، ولكن سارع المسؤولون الروس إلى تعكير النقاش، ليلقوا ظلالًا من الشك على أدلة بأن قوات الرئيس السوري بشار الأسد كانت هي المسؤولة، وقال بوتين لرئيس الوزراء البريطاني، ديفيد كاميرون، إنه لا يوجد أي دليل

«على أن هجومًا كيميائيًّا قد وقع»، وإذا كان الأمر كذلك فمن الذين نفذوه؟ كان بوتين لا يُكِنُّ سوى قليلٍ من التعاطف الشخصي مع الأسد، ولكن ما يعارضه بشدة هو هجوم أمريكي آخر في الشرق الأوسط، وكان مقتنعًا منذ البداية أن الولايات المتحدة تنتظر أية ذريعة لمهاجمة الأسد وإسقاطه، وكان أكثر تصميمًا على الحل من أوباما، الذي قرر معاقبة سوريا لاستخدامها الأسلحة الكيميائية الأكثر فتكًا منذ الحرب بين إيران والعراق في الثمانينيات.

مع اقتراب الضربات الجوية الأمريكية التي لم يبق على تنفيذها سوى ساعات فقط، عكس أوباما الموقف فجأة؛ قائلًا إنه سيسعى إلى الحصول على تفويض من الكونغرس قبل شن الهجوم، وإن التحالف الذي يأمل بتأسيسه لم ينجح حتى مع الحلفاء المقربين منه مثل بريطانيا وألمانيا، اللتين رفضتا التصديق على الضربة. وفي الوقت الذي اجتمع فيه قادة دول مجموعة العشرين في بطرسبورغ في سبتمبر/أيلول، كان موقف أوباما الدولي مضطربًا اضطراب (الخط الأحمر) الذي حدده لاستخدام الأسلحة الكيميائية. كان بوتين معزولًا لدفاعه عن القمع الوحشي للأسد، ولكن اليوم انضم إليه قادة آخرون يصرون على أن أي تدخل يتطلب تفويضًا من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، حيث احتفظ بوتين بميزة حق النقض الروسي. حتى البابا فرنسيس أرسل رسالة إلى بوتين يحث القادة «على وضع الحل العسكري غير المجدي جانبًا»[14].

بعد شهر من إلغاء خطة اللقاء المنفصل مع بوتين، سحبه أوباما جانبًا في قصر قسطنطين خلال قمة مجموعة العشرين G20، وجلس الاثنان على كرسيين يرافقهما فقط المترجمون، وهناك قدَّم بوتين اقتراحًا لإجبار سوريا على التخلص من المخزونات الكيميائية بإشراف التفتيش الدولي، ووافق أوباما، وعندما أصبحت أعلنت الفكرة على الملأ لم يبق سوى قليلٍ من التأييد لأي عمل عسكري تقوده الولايات المتحدة.

بوتين الذي كان مذمومًا لثقل يده بعد إعادة انتخابه، أصبح اليوم بطلًا تفادى التصعيد الكارثي المحتمل للحرب، وحتى عندما استمر أوباما في مساعيه للحصول على موافقة

الكونغرس لتنفيذ عمل عسكري محتمل، يهدف في جزء منه إلى مواصلة الضغط على حكومة الأسد لكي تمتثل للتفتيش؛ صاغ بوتين مقالًا نجحت شبكة العلاقات العامة الأمريكية في الكرملين (كيتشوم) بنشره في صحيفة نيويورك تايمز في 12 سبتمبر/أيلول، قال فيه إن الولايات المتحدة هي التي هددت النظام الدولي الذي أنشئ بعد الحرب الوطنية العظمى؛ وتدخلاتها في أفغانستان والعراق وليبيا أثبتت أنها «غير فعالة وغير مجدية»، وإن روسيا لا تريد حماية نظام الأسد بقدر ما تريد حماية القانون الدولي، ومجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فقط هو الوحيد الذي يفوض باستخدام القوة ضد دولة أخرى؛ فأي هجوم أمريكي على سوريا، أو أي شيء آخر- كما قال- «سيكون بمنزلة عمل عدائي». واختتم رافضًا ادعاء أوباما «بالاستثنائية الأمريكية»، التي تحدث عنها في خطاب متلفز لشرح قراره بعدم قصف سوريا في النهاية. وكتب بوتين: «أيًّا كانت الدوافع، فمن الخطورة القاتلة تشجيع الناس على أن يعدوا أنفسهم استثناء». وأنهى قائلًا: «نحن جميعًا مختلفون، ولكن عندما نطلب بركات الرب، فيجب ألا ننسى أن الله خلقنا متساوين»[15].

المقالة ونبرتها التعليمية، وتلميحها الذي لا يخفى إلى إعلان الاستقلال، أغضبت المسؤولين في واشنطن، وأشار عدد منهم إلى غطرسة روسيا في عدم سعيها إلى الحصول على تفويض في تدخلها في جورجيا عام 2008م، واستمرارها في تزويد جيش الأسد بالأسلحة التي تسمح بسحق الثوار، وتضمنت مقالة بوتين أيضًا الادعاء الذي لا أساس له بأن الثوار السوريين استخدموا على الأرجح أسلحة كيماوية، وسوف تستخدم هذه الأسلحة بعد ذلك على إسرائيل.

إذًا، قدمت مناورة بوتين لأوباما قشة العذر التي جعلت من شن الولايات أمرًا ليس سهلًا، فأوباما يواجه كذلك معارضة في الكونغرس. وبدأت قناة NTV تبث بوجوب منح الزعم بوتين جائزة نوبل لمساعيه في تفادي غارة جوية أمريكية. وفي الخطاب الروسي المسيطر عليه، بدا ذلك مستغربًا، ولكن موقف بوتين لاقى استحسانًا في الولايات المتحدة أيضًا، حتى وإن جاء معظمه من المحافظين الذين يسرهم رؤية أوباما كزعيم سقيم، مهزوم

على الساحة العالمية. بعد شهر وضعت مجلة فوربس بوتين في مرتبة الشخص الأكثر نفوذًا في العالم، متجاوزًا أوباما للمرة الأولى، ومع أن هذه التصنيفات لا معنى لها، فإن وسائل الإعلام الروسية كررتها مرارًا. كتب محررو مجلة **فوربس**: «لو شاهد أي منا المباراة الدولية للشطرنج حول سوريا، وما فعلته وكالة الأمن القومي (NSA) من تسريبات، فسيكون لديه فكرة واضحة عن الديناميات المتحولة للسلطة الفردية»[16]، ودعا المدون الأمريكي مات دردج بوتين بـ(زعيم العالم الحر).

لكن ثمة انتصار دبلوماسي أكبر حجمًا لبوتين على الطريق؛ هذه المرة في أوكرانيا؛ فبعد سنوات من المفاوضات التي بلغت ذروتها في خريف عام 2013م، أوشكت أوكرانيا على توقيع اتفاق شراكة مع الاتحاد الأوروبي، بمعاهدة تعمق العلاقات التجارية والسياسية بينهما.

كان رئيس أوكرانيا، فيكتور يانوكوفيتش، منذ انتخابه في عام 2010م، قد حافظ على علاقات وثيقة مع روسيا، وأبقى بلاده تدور في فلك روسيا، وحين بدأت شعبيته بالتلاشي قبل الانتخابات القادمة في عام 2015م، أحيا إمكانية تعزيز العلاقات مع أوروبا، وهو ما تدعمه المعارضة بقوة في البلاد، ودفع قدمًا بالإصلاحات السياسية التي كانت شرطًا لتوقيع الاتفاقية مع الاتحاد الأوروبي. وكان الأوروبيون يتفاوضون على اتفاقيات مشابهة مع مولدافيا وجورجيا وأرمينيا على أمل السماح لهم بالدخول إلى السوق الأوروبية المشتركة.

بالنسبة إلى الدبلوماسيين في عواصم أوروبا، فإن دمج هذه الاقتصادات، مع إمكانية الحصول على عضوية كاملة في المستقبل، يمكن أن يوسع على نحو مطرد الفضاء الأوروبي الآمن والمسالم، وهي الفكرة القديمة التي أصبحت مادة الإيمان في القرن الحادي والعشرين، ولكن بالنسبة إلى بوتين فإن توسُّع أوروبا لتشمل أوكرانيا يرتقي إلى مستوى الاعتداء على روسيا، الذي سيتبعه- في رأيه- مزيد من الاعتداءات من قبل حلف شمال الأطلسي. وكانت علاقات روسيا الخاصة بالاتحاد الأوروبي قد توقفت وعُرقلت بسبب شكوك عدد من الدول الأوروبية، وخاصة تلك التي كانت ذات مرة في فلك الاتحاد السوفييتي، حول

سياسات الطاقة وحقوق الإنسان، وقد أخفقت قمة يكاترينبورغ، في مايو/أيار، في التوصل إلى اتفاق يسمح بحرية السفر لمسؤولي الحكومة الروسية بغير تأشيرة دخول، وسط جدل حول جواز اعتماد (عقوبات ماجنيتسكي) الأمريكية في القارة.

كانت جهود بوتين الخاصة لجعل أوكرانيا متعلقة تعلقًا وثيقًا بروسيا، التي اقترحها لأول مرة ليونيد كوتشما عشية الثورة البرتقالية في عام 2004م، قد حققت تقدمًا طفيفًا، ومنعت الانقسامات السياسية الداخلية في أوكرانيا. وبعد عشر سنوات من رؤية بوتين للتجارة التي جوهرها إنشاء كتلة تجارية واقتصادية مع موسكو، تطورت إلى تجاوز حدود الاتفاقات الجمركية التقنية، بالتفاوض مع روسيا البيضاء وكازاخستان. وكان أحد الإعلانات السياسية الأولى التي أصدرها عام 2011م بعد إعلان عودته إلى الكرملين، هو إنشاء معاهدة أوسع لتوحيد الاقتصادات التي جنحت كثيرًا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد سماه بوتين بالاتحاد الأوراسي، مستثنيًا دول البلطيق الثلاث، المتخفِّيَة اليوم في الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. وقد تصور بوتين الكتلة لا على أنها مجرد ثقل يوازي الاتحاد الأوروبي، وإنما إمبراطورية جديدة في حد ذاتها، إمبراطورية تجسر الجزء الأوروبي من روسيا والسهوب الشاسعة التي تمتد من البحر الأسود إلى آسيا الوسطى وسيبيريا.

كان الاتحاد الأوراسي أيديولوجية ترسخت بين بوتين والحاشية الداخلية المحيطة به، أيديولوجية افتقدت البراغماتية التي ميزت حكم بوتين حتى ذلك الحين. كانت الأوراسية في روسيا فلسفة محافظة جدًّا طمرتها تحت الأرض (أو في الخارج) الأيديولوجية الأممية للاتحاد السوفييتي، وقد عادت للظهور في عقد التسعينيات، لتمزج الأفكار الدينية المَلَكية في المنافي كما هو حال إيفان إليين، الفيلسوف الذي يقتطف بوتين من أقواله، مع النظريات الجيوسياسية التي جاء بها فلاسفة أمثال هالفورد ماكيندر، صاحب (نظرية هارتلاند) التي جعلت أوراسيا (منطقة محورية) في المعركة من أجل السيطرة على (الجزيرة العالمية)، وهي المساحات اليابسة الأوروبية والآسيوية والأفريقية. هذه الأفكار التي تصدرتها المقالات والكتب التي كتبها إستراتيجيون محافظون أمثال ألكسندر دوغين، انتشرت من هوامش

النقاشات الأكاديمية، وأصبحت أكثر بروزًا، وتداولها أقرب المقربين من بوتين، ونوقشت في وقت متأخر من الجلسات الليلية، وظهرت على نحو متزايد في التصريحات العلنية، ليس فقط لبوتين وإنما لمستشاريه الأكثر قوة.

تزامنت الجيوسياسيات هذه مع نشوء المحافظيَّة في السياسة المحلية التي تناصر وتحمي قيم الكنيسة الأرثوذكسية، وكذلك الإسلام، وتمخض عنها قوانين جديدة جعلت القدح والذم جريمة، وحظرت نشر (دعاية مثليي الجنس) للأطفال.

فلاديمير ياكونين، أحد المقربين من بوتين، رأى في الجهود الساعية لفرض القيم الثقافية الغربية جبهةً جديدة في صراع جيوسياسي تاريخي بين قوى البر والبحر مع روسيا (قوة المساحات الشاسعة من الأرض)، تدافع عن وجودها ضد الولايات المتحدة (القوة البحرية الجديدة)، وهذا يشبه كثيرًا نظرية ماكيندر. وقد وصف الهيمنة الأمريكية على الجغرافيا السياسية والمالية العالمية بأنها مؤامرة لقمع أي منافسين محتملين، وهو ما جعل الاتحاد الأوراسي- كما يعتقد- يمثل تهديدًا للغرب؛ «روسيا كانت وستظل منافسًا جيوسياسيًّا لمصالح الحضارة الأنجلوسكسونية»[17].

المفارقة في الأيديولوجيا الجديدة هي أن النخبة الروسية، وخاصة أولئك الذين يستطيعون تحمل تبعاتها، أصبحوا اليوم غربيين تمامًا، يقضون الإجازات ويمتلكون العقارات في الدول التي كانوا يشتمون قيمها، حتى ابن ياكونين عاش في لندن، وأطلق مدونة تسخر من ألكسي نافالني. «ألقى إيفانوفيتش ياكونين في حضن الغرب البغيض الذي يخلو من القيم الروحية، بعائلته، التي تعد أعز ما يملك، إذا ما استثنينا حبه لفلاديمير بوتين»[18].

في سبتمبر/أيلول، وبعد أن خرج من فوره منتصرًا انتصارًا دبلوماسيًّا بشأن الأسلحة الكيميائية السورية، وصف بوتين (دول اليورو الأطلسية) بالدول الخطيرة التي تبتعد على نحو خطير عن جذورها المسيحية؛ «إنهم يتنكرون للمبادئ الأخلاقية ولجميع الهويات التقليدية: القومية والثقافية والدينية، وحتى الجنسية. إنهم ينفذون سياسات تساوي بين

الأسر الكبيرة وبين الشراكات الجنسية، أو بين من يعتقد بالله وبين من يعتقد بالشيطان، وقد وصلت تجاوزات الصواب السياسي إلى النقطة التي يتحدث فيها الناس بجدية عن تسجيل الأحزاب السياسية التي تسعى إلى تشجيع ممارسة الجنس مع الأطفال»، والأسوأ من ذلك- قال بوتين- أن هذه الدول أرادت تصدير هذه الأفكار الخطيرة، فكانت «الطريق المباشر إلى الانحطاط والبدائية، وهو ما أدى إلى أزمة ديموغرافية وأخلاقية عميقة».

كانت أوكرانيا من أهم الدول التي أمل بوتين أن يضمها إلى الاتحاد الأوراسي؛ لعمق علاقاتها التاريخية والاجتماعية والدينية مع روسيا؛ فكثير من الأوكرانيين من ذوي الأصول الروسية انقطعوا- في رأي بوتين- عن وطنهم الأم في (أكبر كارثة جيوسياسية) في القرن العشرين، واليوم تحولت أوكرانيا نحو أحضان الاتحاد الأوروبي، وبتشجيع من الأوروبيين والأمريكيين، على حساب الاتحاد الأوراسي. وكان واضحًا تمامًا لبوتين أن هيلاري رودهام كلينتون، في ديسمبر/كانون الأول 2012م، حذرت من أن الاتحاد الأوراسي مجرد محاولة لإخضاع جيرانه في تحالف جديد شبيه بالاتحاد السوفييتي، «وعلينا أن نفكر في طرق فاعلة لإبطاء هذا الاتحاد أو منعه»[19].

أعطت مجموعة الاتحاد الأوروبي مهلة لأوكرانيا لكي تصادق على اتفاقية التجارة قبل القمة التي ستعقد في ليتوانيا في نوفمبر/تشرين الثاني، وكان بوتين قبل ذلك بشهور قد بذل جهودًا جبارة لإقناع أوكرانيا بالمقاومة؛ فقد زارها مرارًا كما كان يفعل قبل الثورة البرتقالية في عام 2004م، ولكي يسلط الضوء على الروابط الدينية التي تربط أوكرانيا بروسيا، حضر حفلًا في كييف يحيي ذكرى معمودية الأمير فلاديمير عام 988م، وكان ذلك في يوليو/تموز 2013م، قال بوتين: «نحن جميعًا هنا الورثة الروحيون لما حدث هنا قبل 1025م سنة»، قالها بوتين وقد ظهر مع يانوكوفيتش في دير الكهوف، أحد أقدس المواقع الأرثوذكسية. واستخدم الروافع الاقتصادية أيضًا؛ فبعد أسابيع من الذكرى، حظرت روسيا استيراد القطارات الأوكرانية، والحلوى التي تنتجها روشن، والحلويات التي يملكها أحد القلَّة والوزير السابق بيترو بوروشينكو، الذي يفضل الاندماج الأوثق في أوروبا. وفي أغسطس/آب أوقفت روسيا

تقريبًا جميع البضائع التجارية عبر حدودها مع أوكرانيا من خلال التنفيذ الصارم للقواعد الجمركية للاتحاد بين روسيا وروسيا البيضاء وكازاخستان. كانت طريقة مبتذلة جدًّا في توصيل فكرة أن تحقيق المستقبل الاقتصادي لأوكرانيا سيكون أسهل بكثير إذا ما انضمت أوكرانيا إلى الاتحاد الروسي لا الأوروبي.

سافر مبعوث بوتين إلى أوكرانيا، و(المنافس) الرئاسي السابق، سيرجي جلازييف، إلى يالطا في سبتمبر/أيلول، وحذر في مؤتمر صحفي من أن احتضان أوروبا لأوكرانيا سيوصل إلى الانتحار، وقال متشائمًا: «إن التوقيع على هذه المعاهدة سيؤدي إلى اضطرابات سياسية واجتماعية»[20]، وزوَّد في وقت لاحق يانوكوفيتش بالترجمة الروسية لألف صفحة من اتفاق الاتحاد الأوروبي (الذي لم يترجمه الأوكرانيون على ما يبدو)، وحذره من أن اعتماده يعني أن روسيا سوف تضطر إلى إغلاق حدودها لتجنب تدفق السلع الأوروبية.

قيل إن بوتين كان يكره يانوكوفيتش، الذي يفرض قوته الجسدية ولكنه زعيم بلا مبادئ، وقد شعر أنه كان يخونه مع الأوروبيين، وقد اجتمع بوتين به في أواخر أكتوبر/تشرين الأول، ومرة أخرى في مطلع نوفمبر/تشرين الثاني، وأوضح له ببرود شديد أن أي اتفاق مع الاتحاد الأوروبي سيكلف أوكرانيا ثمنًا باهظًا، وهي الخسائر التي سبق أن أحست بها؛ لأن التمكين الجمركي سوف يتضاءل مقارنة بمليارات الدولارات التي ستخسرها أوكرانيا نتيجة الوجع الاقتصادي الذي ستعانيه البلاد من جرَّاء العوائق الجديدة على السوق الروسية والأسعار المرتفعة للغاز الطبيعي.

بعد آخر هذه الاجتماعات لاحظ الشركاء الأوروبيون في المفاوضات تغيُّرًا في سلوك يانوكوفيتش، فاشتبهوا أن يكون بوتين قد هدد بأكثر من الوجع الاقتصادي؛ بالكومبرومات التي لا يريدها معلنة على الملأ. نهاية يانوكوفيتش، من خلال الصفقات السرية التي أثرته وعائلته، والمقربين منه من رجال الأعمال، جعلته يشعر بالخطر. لم يكن ابتزازًا، كما أصرَّ أحد كبار مستشاري الكرملين في وقت لاحق، ولكنه التحليل الواعي لمدى عمق التشابك بين

اقتصاد البلدين. اليوم في لقاءاته مع الأوروبيين، أصرَّ يانوكوفيتش أن أوكرانيا سوف تخسر 160 مليار دولار في التجارة مع روسيا وارتفاع أسعار الطاقة، وهو رقم غير منطقي؛ إذ إنه يساوي تقريبًا الناتج المحلي الإجمالي للبلاد[21]، وكانت آخر حيلة يائسة دفع بها يانوكوفيتش لإقناع الأوروبيين لتحلية عرضهم، لكن الأوروبيين رفضوا، فكان لبوتين أن انتصر.

في 21 نوفمبر/تشرين الثاني، قبل أسبوع من القمة في ليتوانيا، صَعقت حكومة يانوكوفيتش نظراءها الأوروبيين، وكثيرين في أوكرانيا، بإعلان أن أوكرانيا سوف تدعم الاتفاق، وهو انقلاب على محادثات مكثفة استمرت شهورًا. أثار إعلان يانوكوفيتش الغضب لدى الأوكرانيين الذين يتصورون علاقات أوثق مع أوروبا بصفتها التطور الحتمي من الماضي السوفييتي لبلادهم. احتشد في تلك الليلة نحو ألف متظاهر في ساحة كييف الرئيسة، ميدان الاستقلال، وأصدر يوليا تيموشينكو بيانًا يحث فيه الناس على الرد؛ وذلك بالنزول إلى الشوارع «لأنه انقلاب»، وفي اليوم التالي ازدادوا بضعة آلاف[22]، وبنهاية الأسبوع ازدادت الحشود ونصبت الخيام، تمامًا كما فعلوا بعد الانتخابات المزورة في عام 2004م؛ لكن هذه المرة لم تكن الأعلام التي رفرفت في الشوارع برتقالية اللون، وإنما زرقاء مع دائرة من النجوم الصفراء؛ رمزًا لشعار الاتحاد الأوروبي. أطلقوا على احتجاجهم اسم (الميدان الأوروبي)، وقد عكس الاحتجاج تنازع الأفكار بين ستة وأربعين مليون شخص من سكان البلاد. المتظاهرون سرعان ما صبُّوا غضبهم على تمثال لينين الذي ما زال قائمًا في نهاية الطريق الرئيسة في كييف. لم يكن لينين مجرد مفارقة تاريخية؛ كان مظهرًا للهيمنة المتبقية من موسكو.

لم يفعل يانوكوفيتش كثيرًا لنزع فتيل الاحتجاجات في البداية، قانعًا بالانتظار حتى بداية فصل الشتاء. وفي وقت مبكر من ديسمبر/كانون الأول، في الوقت الذي تكثفت فيه الاحتجاجات، سافر إلى الصين ليروج الصفقات التجارية التي تعبِّر عن أمله في تهدئة الغضب بسبب رفض الشراكة الاقتصادية مع الأوروبيين. وتوقف في سوتشي للقاء بوتين في طريق العودة، وهناك حصل على صفقة سرية لم تعلن حتى 17 ديسمبر/كانون الأول،

عندما ظهرا مرة أخرى معًا في الكرملين، فأعلن بوتين أن روسيا ستمنح أوكرانيا تدفقات نقدية بقيمة 15 مليار دولار من خلال اختيار صندوق الثروة الوطنية الروسي لشراء السندات الأوكرانية، وخفضت غازبروم الغاز الطبيعي من 400 دولار لكل متر مكعب إلى 268 دولارًا. وأكد بوتين ماكرًا أنه لم يصرَّ على انضمام أوكرانيا إلى الاتحاد الأوراسي شرطًا، مع أن عديدين يشتبهون بأنه ويانوكوفيتش اتفقا على أن يكون هذا في وقت لاحق، ما إن يهدأ الغضب الشعبي.

قدم بوتين مذكرة خاصة من خططه للاحتفال بالذكرى السنوية السبعين لتحرير سيفاستوبول، مدينة الميناء الساحلية في شبه جزيرة القرم، من النازيين في عام 1944م، بحيث تجري هذه الاحتفالات في 9 مايو/أيار 2014م، مع أن الظروف لا يمكن أن يتوقعها أحد في شتاء ذلك اليوم في موسكو. بوتين يبدو مرة أخرى قد هزم خصومه، وحقق نصرًا دبلوماسيًّا على الأوروبيين.

قبل دورة الألعاب الأولمبية سعى بوتين إلى التحلي بالشهامة في بلده؛ فبعد عام من القمع الشديد والقوانين القمعية الجديدة، أشار الكرملين إلى ذوبان الجليد في صيف 2013م، وفي يوليو/تموز أدانت المحكمة في كيروف نافالني بتهم الاختلاس، ولكن بعد ليلة مشوشة شملت احتجاجات ومشاورات محمومة بين الكرملين والمحكمة، أطلق أسره مع وقف التنفيذ فقط، ثم سمح الكرملين لنافالني أن يؤسس حملة، كانت خلسة في البداية لكن سرعان ما أعلنها بصفته مرشحًا في الانتخابات البلدية في موسكو في أغسطس/آب ضد الرئيس الحالي، سيرجي سوبيانين، وكانت هي الحملة الأولى لهذا المنصب منذ أن ألغى بوتين انتخابات قادة المناطق بعد بيسلان في عام 2004م. وجاء سوبيانين، بعد إقالة يوري لوجكوف في عام 2010م، على أمل أن يقيم شرعية سياسية خاصة به، واستقال في وقت مبكر ليفوز في مكتب تعهَّد أن تكون فيه انتخابات حرة ونزيهة. وعلى الرغم من المضايقات المألوفة اليوم من منافسيه، واستخدام الموارد الحكومية نيابة عن الرئيس الحالي، كانت الانتخابات قد كشفت بكل تأكيد أنها من أكثر الانتخابات عدلًا في روسيا لأكثر من عقد من الزمان، وهذا ما

أشار إليه حتى منتقدو بوتين. أطلق نافالني حملته الانتخابية على غرار ما شاهده في مسلسل تلفازي أمريكي (السلك)؛ حيث كان يلقي الخطب الانتخابية في الأماكن العامة، في جميع أنحاء المدينة بطريقة قلما استخدمها المرشحون في روسيا من أجل الأصوات.

فبعد سنتين من تناقص الاحتجاجات الشعبية التي لم تتمكن من إضعاف قبضة بوتين على السلطة، بدا اليوم واثقًا بما يكفي لتخفيف بعض الضغوط التي فرضها لخنق المعارضة. وعند فرز الأصوات في سباق العمدة فاز سوبيانين، لكن حصل نافالني على 27 في المئة من الأصوات، وهي نتائج محترمة كانت أعلى بكثير مما توقعته استطلاعات الرأي، وهكذا جعل من نفسه أبرز زعيم معارض في البلاد، غير أنه لم يكن الشخص الذي يمكن أن يمثل تهديدًا قويًّا أو وشيكًا على السيطرة السياسية لبوتين.

استمر ذوبان الجليد في ديسمبر/كانون الأول، عندما صادق مجلس الدوما- بتوجيه من بوتين- على قانون يمنح العفو لآلاف السجناء. وقد أدين كثيرون منهم بتهمة ارتكاب (جرائم) اقتصادية تفرض عليهم تجريدهم من الممتلكات أو الشركات، وضمت قائمة المشمولين بالعفو مشاهير السجناء السياسيين، كذلك اثنتين من أعضاء بازي رايوت، ناديجدا تولوكونيكوفا وماريا أليوخينا، سُرِّحتا قبل أشهر قليلة من انتهاء مدة أحكامهن، كذلك سُرِّح عدد قليل من المتهمين في احتجاجات ميدان بولوتنايا، ثم عفت المحاكم عن ثلاثين من نشطاء السلام الأخضر الدولية الذين اعتقلوا في سبتمبر/أيلول 2013م بعد أن احتجت سفينتهم (آركتك سنرايز) في أعالي البحار ضد أول منصة للنفط البحري الروسي في بحر كارا.

غير أن أكبر مفاجأة للجميع كانت إطلاق أسر ميخائيل خودوركوفسكي في أكتوبر/تشرين الأول، وكان قد أمضى العام العاشر له في السجن، وكانت النيابة العامة الروسية قد أعلنت أخيرًا أنها تتابع قضية جنائية أخرى ضده، ولهذا قد يبقى مسجونًا. وبعد عامين من المفاوضات السرية التي توسطت فيها ألمانيا، عبدت له الطريق إلى فك أسره، وكان جزءٌ من

الصفقة أن يلتمس خودوركوفسكي العفو من بوتين في رسالتين كتبهما في نوفمبر/تشرين الثاني، لم يعلن عنهما، على الرغم من أن بوتين طالب في البداية أن يعترف خودوركوفسكي بالذنب، ووافق على قبول دعوته العفو عنه لأسباب إنسانية، وذلك لتدهور الحالة الصحية لوالدته، وقال بوتين في المؤتمر الصحفي السنوي له في ديسمبر/كانون الأول: «لقد أمضى حتى اليوم أكثر من عشر سنوات في الحبس وهذا عقاب مهم»، اليوم ظهر العفو الأوسع، بعد فوات الأوان، وقد هُنِدِس ليفرج عن الرجل الذي يعد اعتقاله انعطافة مظلمة في التاريخ الحديث للبلاد حين ألقي القبض عليه في عام 2003م.

بعد ساعات قليلة من حديث بوتين في موسكو أوقِظ خودوركوفسكي في الساعة الثانية صباحًا في كاريليا، حيث أمضى السنوات الأخيرة من اعتقاله، ووضع على متن طائرة نقلته أولًا إلى بطرسبورغ ومن ثم إلى برلين، المنفى الآخر عن روسيا الجديدة. وفي اليوم التالي ظهر عند نقطة تفتيش متحف تشارلي، وقد وقف نفسه على أبطال الحرب الباردة المنشقين، وضحايا التقسيم الذين يمثلهم جدار برلين.

قُصَّ شعره الذي كان أكثر بياضًا، إذ غزاه الشيب، وبدا كمن خرج «من البرد والظلام إلى غرفة مضاءة زاهية وفيها من الدفء أكثر من اللازم»، كما كتب الصحفي الذي كان هناك، أركادي أوستروفسكي. وبدا خودوركوفسكي، الذي قضى كثيرًا من وقته في القراءة والكتابة في السجن، غير منكسر ولا شاعر بالمرارة[23]. «طوال هذه السنوات كانت جميع القرارات التي اتخذت بحقي من رجل واحد: فلاديمير بوتين. حتى اليوم يصعب أن أقول إنني شاكر؛ لقد فكرت بالكلمات التي تعبِّر تمامًا عما أعتقد به؛ أنا سعيد لقراره، وأعتقد أن هذا كل شيء».

كان أحد شروط فك أسره أن يوافق على عدم الانخراط في الحياة السياسية عامًا، مع أنه تعهد أن يكون ناشطًا في تأسيس المجتمع المدني في روسيا من بعيد، وقال: «المشكلة الروسية لا تتعلق في شخص الرئيس، المشكلة هي أن أغلبية مواطنينا لا يفهمون أنه

يجب عليهم أن يكونوا مسؤولين عن مصيرهم؛ إنهم سعداء جدًّا أن يفوضوا فلاديمير فلاديميروفتش بوتين، مثلًا، وبعد ذلك سوف يعهدون بالبلد إلى شخص آخر، وأعتقد أن هذا لبلدٍ كبير مثل روسيا هو المسار إلى الطريق المسدود».

لم يكن القصد من إطلاق خودوركوفسكي طرد أحد المنشقين بقدر ما هو عمل رحيم وخيِّر من القيصر، وكثيرون رأوا- ومنهم خودوركوفسكي والنساء من بازي رايوت- أن العفو جاء جزءًا من جهود الكرملين لاتخاذ بعض الإجراءات التي تخفف من الانتقادات الدولية المتزايدة قبل دورة الألعاب الأولمبية في سوتشي، التي يفصلهم عنها أقل من شهرين. فضَغْطُ بوتين على أوكرانيا، وتعزيز القوانين ضد المعارضين السياسيين، والتشريعات المتعلقة بالمثليين، وتصريحات بعض النواب والمسؤولين، وفضائح الاستعدادات المكلفة لتجهيز الأماكن في سوتشي، والعمليات التأديبية في مكافحة الإرهاب في القفقاز التي أدت إليه؛ كل هذا كان يواجه هجومًا لاذعًا. وقد أخذ زعماء العالم، من بينهم باراك أوباما، وأنجيلا ميركل، وديفيد كاميرون، يوضحون بجلاء أنهم لن يحضروا المباريات؛ خشية أن ينظر إلى حضورهم على أنه تأييد لحكم بوتين، ومن ثم فتلميع صورة روسيا بالتأكيد كان جزءًا من الدافع وراء الإجراءات التي اتخذها بوتين، وأثبتت أيضًا قدرته الفريدة على إخضاع فروع السلطة وتطويعها لإرادته، كما خضعت بلدان أخرى.

منح بوتين العفو بالطريقة نفسها التي منح بها عقود بناء سوتشي للأباطرة الذين حازوا ثقته، وبطريقة يستطيع فيها من غير نقاش أن ينفق 15 مليار دولار من صندوق اليوم الأسود للأمة لإبقاء حكومة يانوكوفيتش تحت نفوذ موسكو. كان خودوركوفسكي على صواب؛ لقد فعل بوتين ما فعل على عاتقه الشخصي لأن الناس قد (عهدوا) له بالحكم، ليكون الزعيم القمة وقيصر الديموقراطية المزيفة. اليوم لا تجد أحدًا، بدءًا بالروس العاديين ووصولًا إلى الأباراتشيك (الرفاق) الذين تواطؤوا معه في النظام السياسي والاقتصادي الذي بناه، يمكن أن يتحمل المسؤولية في تغيير الأمور.

في ليلة 7 فبراير/شباط 2014م، افتتح بوتين- بجملة قصيرة واحدة منصوص عليها في الميثاق الأولمبي- دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي. لم يكن كل شيء حينها قد اكتمل في الوقت المناسب، على الرغم من الجهود الفائقة التي استمرت حتى بعد أن بدأت الأحداث الرياضية: فالأرصفة غير المنتهية غُطيت على عجل، ومخلفات البناء كانت مخبأة وراء لوحات زرقاء واضحة، إضافة إلى أن عددًا من الفنادق لم تستَكمل، وخاصة تلك التي بقيت للصحفيين الأجانب، كل ذلك هدد بتحويل الحدث إلى كارثة علاقات عامة، وأصبحت حملة محاصرة الكلاب الضالة عن طريق إماتتها ببطء، أبرز موضوع في وسائل الإعلام ما قبل الافتتاح. فضلًا عن هذا فبعد الإنفاق الضخم لإعادة بناء سوتشي، والتحسب من تهديد الإرهاب، كان قد وقع في نهاية ديسمبر/كانون الأول تفجيران انتحاريان في فولغوغراد راح ضحيته أربعة وثلاثون شخصًا.

كان ثمة نوع من الشماتة في بعض تغطيات الاستعدادات القاسية والمغرورة في روسيا، وكان ثمة أيضًا قلق دولي حقيقي من القوانين الجديدة الرجعية في روسيا- وخاصة تلك المتعلقة بالقذف و(دعاية مثليي الجنس)- وخنق الاحتجاجات التي استمرت حتى في أثناء حفل الافتتاح.

قبل يومين من بدء الألعاب، نشر أكثر من مئتي كاتب من ثلاثين بلدًا رسالة مفتوحة في صحيفة الجارديان تدعو إلى إلغاء القوانين التي تحد من حرية التعبير والتي أصدرها بوتين بعد عودته إلى الرئاسة، وكان من بين الموقعين أربعة فائزين بجائزة نوبل: غونتر غراس، ووول سوينكا، وألفريدي يلينيك، وأورهان باموك.

تظاهر بوتين باللامبالاة من الانتقادات الصغيرة والكبيرة، ولكن قيل إنه غضب منها، وفي مقابلة مع صحيفة كوميرسانت، رفض المتحدث باسمه، ديمتري بيسكوف، الشكاوى من الفساد والهدر، وعدها من المبالغات[24]، وقال: تعالوا إلى سوتشي وانظروا إلى ما تم بناؤه، وكان ذلك هو الدليل الكافي على أنه «على أقل تقدير ليس كل الأموال قد سرقت». ثم روى

حديثًا مع (شخص حكيم جدًّا)، بدا واضحًا أنه بوتين: «قال هذا الشخص الحكيم: هل تعرف متى سوف يحبنا الجميع ويتوقفون عن انتقادنا لأي سبب كان، وغير ذلك؟، سألته: متى؟ فقال: عندما نحل جيشنا، وعندما نتنازل عن مواردنا الطبيعية لهم، وعندما نبيع كل أرضنا إلى المستثمرين الغربيين؛ فقط في هذه الحالة يتوقفون عن انتقادنا».

في الواقع، تضاءل النقد حالما بدأت الألعاب، وكان حفل الافتتاح الفخم هو التعبير المبهر عن مثالية بوتين الروسي، وقد أخفق رئيس القناة الأولى، كونستانتين إرنست، في تغطية الحدث على الرغم من أنه هو الذي أخرج تغطية مسيرات يوم النصر السنوية في الساحة الحمراء، والمؤتمرات الصحفية السنوية لبوتين.

أطلق على المشهد (أحلام روسيا)، واستمر نحو ثلاث ساعات، وقد بدأ مع فتاة شابة تدعى ليوبوف، أو الحب بقراءة الأبجدية السيريلية. مع كل حرف جاء إسقاط يمثل مشاهير الفنانين والمخترعين والأماكن: Б لبايكال، C لسبوتنيك، П للجدول الدوري لمندلييف، وهلم جرًّا. وكان بعض المهاجرين الذين وصمت أعمالهم ذات مرة بالانحراف أو بالخيانة، ومن بينهم شاغال، وكاندينسكي، ونابوكوف، قد أعيد تثبيتهم اليوم في البانتيون من التاريخ الروسي المجيد. بعد ذلك استعرضت ليوبوف التاريخ الواسع في البلاد، والجغرافيا، ومن إمبراطورية بطرس الأكبر (الحرف И ل IMPERIYA) إلى الحرب والسلام، تقدمه بأداء باليه مبهر، من قباب البصل لكاتدرائية سانت باسيل إلى الترويكا المتألقة التي جعل جوجول منها كناية عن روسيا في (النفوس الميتة): «روسيا، إلى أين أنت تسرعين؟ أجيبي! لكنها لا تجيب بأي جواب».

لم يتجاهل الحفل البلاشفة، والإرهاب، أو معسكرات العمل (الغولاغ) تمامًا، لكنه لم يركز عليها. كان الحفل تجلِّيًا لـ(الفكرة القومية) التي هي في صلب التفكير السياسي لبوتين، تلك التي عدَّلت بطريقة ما ماضي البلاد المضطرب إلى حالة أفضل، وحوَّلت قوس التاريخ إلى شيء يمكن أن يفاخر به الناس، ولا يخجلون منه. وكان الخلل الوحيد في الحفل

حين تكشفت خمس رقائق ثلج مضيئة لحلقات الشعار الأولمبي فلم تنجح واحدة منها، ولكن منتجي التلفاز البارعين استعاضوا عنها بسرعة بصورة واحدة من البروفة، ولم يعرف أحد من مشاهدي التلفاز الروسي ما حدث. الرحلة الأخيرة للشعلة الأولمبية اجتازت البلاد مع السرد الرفيع لهذه الألعاب، من أعماق بحيرة بايكال إلى الفضاء الخارجي، وشملت بعض الرياضيين الأولمبيين الشهيرين في روسيا، وكان من أبرزهم الفائزة بالميدالية الذهبية في أثينا عام 2004م، ألينا كاباييفا.

حقق الأولمبياد الغرض السياسي الذي أراده بوتين، فحتى ألكسي نافالني، الذي نشرت منظمته لمكافحة الفساد موقعًا تفاعليًّا عن نفايات التايتنك، وجد نفسه مندمجًا بحفل الافتتاح، وقال متحدثًا عنه: «إنه جميل جدًّا، وجامع جدًّا». وطالما جرى تركيز الانتباه على الرياضة كما أصرَّ دائمًا بوتين ومساعدوه؛ حتى تخفف دورة الألعاب الأولمبية من بعض الانتقادات العنيفة له ولحكمه.

كان بوتين نفسه يتنقل من فعالية إلى أخرى، مبتهجًا بالرياضة والاهتمام والتقاط الصور التذكارية مع الرياضيين، وقد شرب البيرة مع الملك الهولندي ويليم ألكسندر، بل وزار فريق الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يجعله متفاخرًا أنه على الرغم من خلافاته السياسية مع الولايات المتحدة، رحب بمشاركتهم، وأنه رجل أكبر من أوباما، الذي امتنع عن الحضور؛ فقد حقق حلمه: كانت روسيا في مركز الاهتمام العالمي، وغنية، ولا غنى عنها، أمة موحدة تستضيف العالم. روسيا، في رأيه، حققت المجد والاحترام الذي حققه الاتحاد السوفييتي عندما كان في ريعان شبابه؛ عندما كان غاغارين في الفضاء، وعندما كان الجيش الأحمر هائلًا ويُخشى ويُحسب حسابه.

غير أن هناك تحت المشهد والرياضة تيارًا من القلق والخوف؛ فالوحدة الوطنية المعروضة في سوتشي مهما كانت حقيقية، لم تقدم شيئًا لتخفيف قبضة الدولة القوية عن خنق أية علامة معارضة. فالاحتجاجات في أوكرانيا، التي لم تتبدد خلال فصل الشتاء،

ترددت أصداؤها في موسكو مثل زلزال بعيد، صوته ضعيف ولكن شؤمه يهز الأرض. وفي الأسابيع التي سبقت الألعاب، انتقل بوتين في خطوة استباقية لحجر أي عدوى اندلاع موجة جديدة من الاحتجاج داخل روسيا. وفي ديسمبر/كانون الأول أصدر مرسومًا يحوِّل بموجبه ريا نوفوستي (RIA Novosti) التي حصلت في ظل حكم ميدفيديف على الاحترام؛ لتوازنها وتنوع وجهات النظر التي تعرضها، إلى منظمة أنباء حكومية. وفي يناير/كانون الثاني أسقط مزودو خدمات الكابل المحطة التلفازية الليبرالية التي تدعى دوزت (المطر)، بعد أن طرحت في استطلاع على الإنترنت تساؤلًا، لو استسلم الجيش الأحمر في لينينجراد وتراجع بدلًا من تحمُّل حصار استمر 872 يومًا على حساب مليون قتيل، أكان يمكن أن ينقذ مزيدًا من الأرواح؟ بعد أن أعيد بناء المثالية الأولمبية في تاريخ روسيا عند بوتين، يبدو أن الكرملين عازم على إسكات أي شخص يعارض ذلك.

في تحدٍّ للميثاق الأولمبي الذي يحث على حرية التعبير، ألقت الشرطة القبض على عشرات الأشخاص، من بطرسبورغ إلى القفقاز، حاولوا الاحتجاج لسبب ما يوم حفل الافتتاح. وفي منتصف الألعاب، حكمت محكمة في كراسنودار على ناشط من نشطاء البيئة في شمال القفقاز بالسجن ثلاث سنوات، في حين اعتُقِل أعضاء آخرون من الجماعة لمنعهم من تقديم تقرير كانوا قد أعدوه من قبل عن الضرر البيئي الذي أحدثه البناء في سوتشي. واجتمعت نساء بازي رايوت والتمَّ شملهن في سوتشي مع أغنية احتجاجية جديدة: «يا بوتين سوف نعلمك حب الوطن»، وجرى على الفور التعامل معهن؛ بضربهن بالسياط من قبل الفرسان القوقازيين البارعين في ركوب الخيل، ثم اعتقلتهن الشرطة بدعوى أنهم يحققون في واقعة سرقة من الفندق الذي يُقمن فيه.

وظهر فيلم وثائقي عن الكيمياء الحيوية للخيانة على قناة (روسيا)، في ذروة الألعاب في 18 فبراير/شباط، يساوي بين المعارضة في روسيا والقائد السوفييتي الجنرال أندريه فلاسوف، الذي تعاون مع النازيين بعد إلقاء القبض عليه في عام 1942م. عندما انتهت محاكمة ثمانية من الذين ألقي القبض عليهم في احتجاج بولتنايا في عام 2012م بإدانتهم

وإصدار أحكام بالسجن عليهم في ذروة الألعاب، ألقي القبض على 212 شخصًا في الشوارع خارج مبنى المحكمة، وعند الإعلان عن الأحكام الصادرة بحقهم بعد ثلاثة أيام، كان هناك مزيد من الاحتجاجات والاعتقالات لـ 232 شخصًا آخرين، وكان من بينهم ألكسي نافالني للمرة الثانية، ونساء من بازي رايوت.

كان بوتين قد استثمر كثيرًا في دورة الألعاب الأولمبية؛ ومن ثم فأي انتقاد لها، وأي احتجاج يتساءل عن فائدتها، كان يُعدُّ قدحًا (شتمًا) وعملًا من أعمال الخيانة ضد دولة ناشئة. وفي عمود على موقع (Yezhednevny Zhurnal)، كتب الساخر فيكتور شيندييروفيتش، الذي أوقف تصويره لبوتين عرض دميته كوكلي على الهواء في عام 2000م، متأملًا في الفخر الذي شعر به خلال دورة الألعاب الأولمبية، يرافقه قلق من أن شعوره ذاك قد يكون تعزيزًا لسلطة بوتين فقط وتشجيعًا له. وتساءل هل يستطيع ناقد مثله أن يهتف ببراءة للفريق الروسي الذي حصل على أول ميدالية ذهبية من فريق التزلج، والتي جاءت بعد الأداء المبهر (والتصويت المشكوك فيه من قبل الحكَّام) لشابة متسابقة في الخامسة عشرة من عمرها، يوليا ليبيتسكايا. وأوضح عمود شيندييروفيتش أيضًا أنه استمتع بـ(متزلجة على الجليد)، لكنه ذكَّر القراء بحماس ألمانيا لهانز فولكي النجم الأولمبي في دورة الألعاب الأولمبية في برلين عام 1936م: «شاب مبتسم وسيم، يرمز إلى شباب ألمانيا الجديدة! لكن شيئًا ما يمنعنا من التمتع بفوزه اليوم»[25].

ولم يوضح مصير فولكي بصراحة، لكنه ذكر داخاو وقصف كوفنتري، وحصار لينينجراد، ومجزرة غير معروفة في خاتين قرب مينسك، عاصمة ما يعرف اليوم بروسيا البيضاء؛ حيث أعدمت القرية بأكملها بوحشية في عام 1943م ردًّا على هجوم حزبي على قافلة من كتيبة الشرطة المساعدة الـ118 للنازيين. كان فولكي أحد ضباط الكتيبة وقتل في الهجوم. وكانت المجزرةُ النازيةُ جريمةَ حرب سيئة السمعة، وقد جعلها الاتحاد السوفييتي معلنة للجميع، ويتذكرها قراء شيندييروفيتش بكل تأكيد. وكتب قائلًا: «ليس خطأ من هانز،

بطبيعة الحال، لكن تبين أنه أسهم». أراد شيندیروفیتش أن يكون استفزازيًّا، وربما على نحو مفرط، ولكن إشارته إلى النازيين أثارت ردود فعل غاضبة في وقت تصور فيه روسيا احتجاجات الشوارع في أوكرانيا على أنها ليست أقل من انتفاضة نازيين جدد. وكان الرد سريعًا ومتوحشًا.

استنكار ما عرضه شيندیروفیتش نشر مطبوعًا وعلى الهواء، ففي اليوم التالي لظهور عموده، بثت قناة (روسيا) شريط فيديو ظهر فيه مستمنيًا في السرير مع امرأة لم تكن زوجته[26]. وبعد أسابيع قليلة، أغلق الموقع الإلكتروني للمجلة، إضافة إلى بوابات المعارضة Grani.ru وKasparov.ru.

الكرملين، بعد أن تجاهل إلى حد كبير الروح التحررية في الإنترنت، حان الوقت ليفهم التهديد الذي يمثله؛ فشدد الخناق عن طريق لوائح تنظيمية ضد تعزيز (التطرف)، واليوم يستحضرها بقوة أكثر من أي وقت مضى في عهد بوتين. الحملة ضد المعارضة- حملة استنكارات كاملة لا يمكن أن تكون إلا بتنسيق من قبل المتعاملين مع وسائل الإعلام من الكرملين- أوجدت شعورًا عامًّا كما لو أن البلاد تُعبَّأ للحرب مرة أخرى.